الفصل الخامس

الاعلام واللغة المشتركة

تقدم ان الوسيلة الوحيدة الفعالة فى الاتصال الاعلامى والجماهيرى ، والتى نتمكن بها من ادراك معنى الحياة ، وتوضيح معالمها ، ونعت مظاهرها هى اللغة المشتركة والتى تمثلها لغة الاعلام .

فاللغة المشتركة تمثل فى كل الاحوال روح الشعب، على حين ان الادب الذى يسود بين الطبقات العليا من الامة قد يكون عاكسا للتأثيرات الخارجية والاجنبية.

واللغة العربية — كما يقول الاستاذ مصطفى صادق الرافعى — هى صورة وجود الامة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها وجودا متميزا قائما بخصائصه ، فهى قومية الفكر ، تتحد بها الامة فى صور التفكير ، واساليب اخذ المعنى من المادة . والدقة فى تركيب اللغة دليل على دقة الملكات فى اهلها ، وعمقا هو عمق الروح ، ودليل الحس على ميل الامة الى التفكير والبحث فى الاسباب والعلل .

والمتأمل فى طبيعة اللغة العربية ومزاياها فى الفن والتعبير ، يكتشف صفات اساسية فى هذه اللغة ، تميزت بها خلال مراحل تاريخها الطويل .

فاللغة العربية تضمنت مزايا وصفات اعلامية فى حروفها ومفرداتها وتراكيبها ، لانها كانت لغة مشتركة منذ كان للعرب قبل الاسلام اسواق مشهورة تقام فى اشهر مختلفة من العام ، لا للبيع والشراء فحسب ، بل ايضا لتحقيق نوع من الاتصال الجماهيرى عن طريق المساجلات والمناظرات بين كبار الشعراء ، وفصحاء الخطباء ، اولئك الذين كرسوا حياتهم للنهوض بهذه اللغة والسمو بآدابها .

وهؤلاء هم الذين تحداهم القرآن الكريم ان يأتوا بسورة من مثله . اى ان تلك الاسواق كانت بمثابة مؤتمرات اتصالية ، فيها ينشد الشعراء ما تجود به قرائحهم وفيها يبرز الخطباء داعين الى مذهب سياسى او دينى بين القبائل المختلفة .

وكانت هذه اللغة الادبية — كما يقول الدكتور ابراهيم انيس (105) — بمثابة لغة مشتركة بين العرب جميعا ، يتخذونها اداة التعبير عن آدابهم ، ويعتزون بها كل الاعتزاز . ولهذا نزل القرآن الكريم بها ، فلم تكن لغة قريش وحدها ولغة مكة وحدها ، بل كانت اللغة المشتركة للعرب جميعا . غير ان نزول القرآن بها قد زادها ازدهارا فوق ازدهار ، وثبت اركانها ودعائمها .

ولهذه اللغة المشتركة صفتان :

اولاهما : انها خاضعة لقواعد معينة تباعد ما بينها وبين التطور الا ببطء شديد وفى زمن طويل ، وهى لهذا اسمى من لهجات الحديث اليومى المعتاد المتداول فى المنازل والطرقات والاسواق ، ولذلك يصطنعها من يريد اجادة القول واتقان الاداء ، كما يصطنعها رجال الاعلام والاتصال بالجماهير على اوسع نطاق .

وثانيهما : انها — كما عبر هنرى سويت — اللغة التى لا يستطيع السامع ان يحكم على المنطقة المحلية التى ينتمى المتكلم بها (106) .

ويتضح من ذلك ان اللغة المشتركة — مع انها نشأت فى البدء على لهجة منطقة معينة — قد فقدت مع الزمن عناصرها الاولى ، او نسى المتكلمون بها ينابيعها التى نبعت منها ، فصارت ذات كيان مستقل وشخصية متميزة ، فلا يذكر المتكلم بها او الذى يسمعها منطقة معينة ترجع اليها او طبقة تمت اليها ، بل يشعر انها ملك مشاع للجميع ، كأنهم صانعوها بغير فضل يمتاز به بعضهم على بعض .

وفى ذلك ما يؤكد اعتزاز المتكلمين بها ، واتخاذهم لها وسيلة للتعبير الاعلامى والاتصال الجماهيرى .

وهناك عوامل مهدت للغة العربية المشتركة : منها الدين ، فالقرشيون يقيمون بواد غير ذى زرع وهم مفتقرون الى ان تهوى الى البيت الحرام افئدة الناس. وقد استجاب الله دعاء سيدنا ابراهيم ، فجعل الكعبة

وكانت القبائل التى تفد على مكة للحج ذات لهجات، منها الجيد ، ومنها الردئ . وكانت قريش تسمع الوافدين ، وتستصفى من لهجاتهم ما يروقها ، وكان

---

(105) « اللغة بين القومية والعالمية » — ص : 276 .
(106) ابراهيم انيس : « مستقبل اللغة العربية المشتركة » — ص : 5 .

الوافدون ينتقلون عن قريش ، ويبثون فى الجزيرة ما نقلوا (107) .

ومنها التجارة ، فقد كان القرشيون يرتحلون فى كل عام رحلتين :

رحلة فى الشتاء الى اليمن ، ورحلة فى الصيف الى الشام ، واحيانا يضربون فى الارض ، ويمشون فى مناكبها الى فارس والى الحبشة ، وهم قوم صناعتهم الكلام ، سرعان ما يضيفون الى لغتهم ما يغذيها ، ويزودونها بما ينميها ويرقيها .

وظاهرتها المكانة الاجتماعية التى استمدتها قريش من نفوذها الدينى والاقتصادى ، حتى قال ابو بكر فى رده على الانصار يوم السقيفة مؤيدا حق المهاجرين فى الخلافة : « وهم اولياؤه وعشيرته ، واحق الناس بهذا الامر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك الا ظالم »، وقال فى خطبته الثانية : « لا تدين العرب الا لهذا الحى من قريش » (108) .

وكان لذلك جميعا اثره فى نشأة لغة مشتركة ، قامت اصولها على لهجة قريش وسكان مكة ، وان لم تخل من لهجات اخرى لكثير من القبائل ، ثم جعلت هذه اللغة المتطورة تزداد على مر الزمن نماء وصقلا ، وجعلت تنتشر فى اصقاع شبه الجزيرة ، حتى صارت لغة الادب التى يصطنعها الشعراء ولغة الاتصال بالجماهير التى يصطنعها الخطباء مهما تختلف قبائلهم وتتعدد لهجاتهم .

فلما اشرق الاسلام كانت هذه اللغة المشتركة قد بلغت درجة الرقى والوحدة اعدتها لان ينزل بها القرآن الكريم ، فتمت به الوحدة اللغوية بين العرب .

وكان النبى عليه الصلاة والسلام يتصل بالوفود العربية من جهات شتى ، ويراسل الأمراء فى الجزيرة وما حولها ، ويعقد المعاهدات مع كثير منهم ، ويتلو القرآن الكريم على قبائل من اصقاع متباعدة ، ويبعث مندوبيه الى شتى النواحى لتعليم القرآن الكريم ونشر الدين وجباية الزكاة ، والقضاء بين الناس ، وفى كل هذا كانت اللغة العربية المشتركة هى وسيلة التعبير.

وحينما تمت الفتوح الاسلامية فى الامصار وما وراء الامصار ، انتصرت العربية على اللغات الاجنبية المفروضة على شعوب المنطقة ، سواء فى المشرق او فى المغرب ، ويكاد المؤرخون الغربيون انفسهم يجمعون على ان هذه اللغات صفيت من المنطقة فى القرن الاول للاسلام .

« ان خمسة قرون من الاحتلال الرومانى — لاقطار العرب — لم تستطع ان تترك ما يصمد امام العقيدة الاسلامية واللغة العربية » (109) .

وفى مصر حيث استغرقت عهود السيطرة الاجنبية اكثر من الف ومائة عام قبل الفتح العربى لم تجد الجهود التى بذلها الغزاة على ذلك المدى الطويل لفرض ثقافاتهم عليها ، ولم تصمد اليونانية التى كانت استأثرت بالمجال الثقافى والرسمى ثلاثة قرون قبل الميلاد (333-30 ق م) وثلاثة اخرى بعده (284-616) امام اللغة العربية (110) .

ولم يبد ان العربية واجهت فى اى قطر من المنطقة اى مقاومة من هذه اللغات الاجنبية ، وانما كانت المواجهة مع اللغات الوطنية للشعوب التى دخلت فى الاسلام (111) .

ولا نغالى حين نقرر ان اقبال الناس فى بعض الامصار على اللغة كان اسرع من اقبالهم على الدين . وهكذا اصبحت اللغة العربية خلال قرنين من الزمان لغة عالمية ، تنتظم جهات من بلاد فارس ، وكل العراق ، ومعظم مدن آسيا الصغرى ، كما تنتظم مصر وشمال افريقيا ، كما سادت فى بلاد الاندلس عدة قرون ، وحرص العلماء والدارسون منذ القرن الثانى الهجرى على تعقيد قواعدها وتثبيت دعائمها فى الامصار فلم يكد ينتهى هذا القرن حتى كان لها آثار جليلة فى شتى الدراسات الدينية واللغوية (112) .

وظلت اللغة العربية فى نهضتها الادبية حتى بعد استقلال الدويلات الاسلامية عن الدولة العباسية والتى

---

(107) د . احمد محمد الحوفى : وحدة اللغة والوطن فى الشعر الحديث — ص : 8 .
(108) المرجع السابق — ص : 9 .
(109) ابراهيم حركات : « المغرب عبر التاريخ » — ص : 75 — ط : السلمى بالدار البيضاء .
(110) هارولدبلى : « الهلينية » فى مصر — ص : 55 — ترجمة د . زكى على (959) .
(111) د . عائشة عبد الرحمن : « لغتنا والحياة » — ص : 61 .
(112) د . ابراهيم انيس : « اللغة بين القوميات العالمية » — ص : 276 .

ظلت تدين بالولاء للخليفة العباسى فى بغداد ، تأكيدا للصلة الروحية . فلما كان القرن الرابع الهجرى شهدنا شعراء وكتابا للآداب العربية لا يقلون قدرا عن الذين كانوا فى القرن الاول او الثانى من الهجرة ان لم يتفوقوا عليهم .

واللغة العربية ماضية فى حركتها تتسع وتنمو وتتلقى جديد الروافد فى مرونة سخية ، وحراسها ساهرون عليها لحماية اصالتها .

واخذت الحياة اللغوية مجراها فى جانبين (113) : الفصحى العالية المشتركة ، لسان العربية دينا ودولة وثقافة وعلما وادبا .

ولهجاتها الاقليمية على السنة الشعوب المستعربة.

اما الفصحى ، فكانت اللغة العليا المشتركة لشعوب تباعدت اصولها واختلفت اقاليمها وتفاوتت امزجتها وميراثها الفكرى والثقافى والحضارى وتميزت مدارس معروفة فى النحو والبلاغة فى الكوفة والبصرة وبغداد ومصر . واضطلع المغرب بدور جليل فى الدراسات الاسلامية لموقعه الهام على تخوم دول مسيحية .

واتسعت العربية لهذه الآفاق المترامية ، فكانت لغة العلم والثقافة والادب لشعوب الدول الكبرى .

وقد استطاعت العربية بمرونة فائقة ، ان تتحاشى ازمة موقفها بين القديم الاصيل والمحدث الطارئ ، بتطويع دلالات الالفاظ والتوسع فى المجاز ، لكى تؤدى المعانى الجديدة التى لم يكن للعرب عهد بها من قبل . وكانت تجربتها التى اثرتها بالمصطلحات والالفاظ الاسلامية من عصر المبعث الى عصر الفتوح ، قد نجحت تماما فى هذا التطويع للغة الجاهلين الوثنيين ، دون ان تجد مشقة او عسرا لتكوين لغة الامة الاسلامية (114) .

واما اللهجات الاقليمية فقد اخذت حريتها فى الحركة والتوسع ، فتختلف عن كثير من قيود الاعراب مستغنية عنها بنسق التركيب ودلالة السياق . وطوعت الصيغ لمواجهة عوامل صوتية جبرية فرضتها طبيعة الاجهزة الصوتية لشعوب تفاوتت مسالكها اللغوية وميزاتها فى الاداء مع اتصالها فى الوقت نفسه بالفصحى العليا فى لغة القرآن الكريم ومن ثم اتيح للعربية هذا الانتشار الواسع وطاعت بها السنة الشعوب المتعربة مستغنية عن الدرس والتلقين .

سمات اعلامية فى اللغة العربية :

واتسمت العربية منذ تلك النهضة العظيمة بسمات اللغة الاعلامية ، فهى :

اولا : لغة مفهومة لدى العامة ، حيث لم تحل اللهجات الشعبية دون فهم نصوص الفصحى ، فالجماهير التى تصلى الجمعة فى المساجد الاسلامية على المساحة الكبرى كانت تفهم خطب الائمة والوعاظ دون شرح ، وقادة الجيوش فى المعارك الاسلامية ضد الغزو الصليبى والتتار ، كانوا يخطبون فى جنودهم باللغة الفصحى ، وشعراء الحروب الصليبية ومعارك التتار وخطباؤها الهجوا وجدان الجماهير بقصائدهم وخطبهم بالفصحى ، ودعاة المذاهب والفرق ، يتصلون مباشرة بالعامة ، ويؤثرون فيهم بالكلمة ، وما كانوا يتكلمون الا باللغة العربية المبسطة .

ثانيا : لغة ديمقراطية ، لا تخاطب الكبير بخطاب والصغير بخطاب آخر ، ولا تخلط بين ضمير المفرد وضمير الجمع ، فيقول الله سبحانه وتعالى : « انا ربكم الاعلى » ، ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام: « انما انا بشر مثلكم » ، ويقول له الناس : « ما انت لا بشر مثلنا » ، الى غير ذلك من اساليب اصيلة فى العربية سوت بين الناس فى الخطاب والغيبة والتكلم.

ثالثا : لغة عالمية ، حيث اصطنعتها شعوب متعددة، منذ استقرت الدولة العربية فى اواخر القرن الثانى واوائل الثالث من الهجرة . فاخذت بالطابع العربى دينا ولغة وثقافة وحضارة وقد صهرت كل تلك الشعوب التى كانت فى آسيا الصغرى ومصر وشمال افريقيا فى البوتقة العربية وتألف منها فى نهاية الامر شعب عربى واحد ، يدين بدين واحد ويصطنع لغة واحدة ، هذا الى ان العربية دخلت ايضا مناطق نائية من الدين الاسلامى ، واصبحت هناك لغة الثقافة الدينية ، كما

---

(113) عائشة عبد الرحمن : « لغتنا والحياة » ـ ص : 71 .
(114) السيوطى : « المزهر فى علوم اللغة » ـ ص : 294 وما بعدها .

هو الشأن فى بعض جهات الهند ، وفى باكستان وافغانستان والملايو واندونيسيا ، وغيرها من دول الشرق التى انتشر فيها الاسلام وانتشرت بانتشاره اللغة العربية ودخلت العربية كذلك جهات من افريقيا اعتنقت الاسلام واصبحت الآن تعرف بالدول الاسلامية فى وسط افريقيا وشرقيها وغربيها .

وقد اتجهت هذه الدول الاسلامية صوب العربية تستمد منها الثقافة الدينية والحضارة العربية ، مثل موريتانيا ونيجيريا والصومال . وهكذا نرى ان العربية قد ذاعت فى مناطق متباعدة الاطراف ، وان اصبحت من بين اوسع اللغات انتشارا فى العالم . ويعدها المحدثون من اللغويين ثالثة لغات العالم الحديث من حيث انتشارها وسعة مناطقها (115) .

رابعا : رحبت العربية فى اوج نهضتها بكثير من الالفاظ التى اقترضتها من اللغات الاخرى ، واستغلتها فى المصطلحات العلمية ولغة الكلام . وبقدر ما توسعت فى الاشتقاق والمجاز ضيقت باب الاخذ من الدخيل ، صونا للسانها ، فاستغنت الى اقصى المدى ، بتطويع الالفاظ الفصحى لكى تؤدى المعانى الجديدة على وجه التجوز ، ولم تلجأ الى استعارة الدخيل الا عند الضرورة القصوى ، مع اخضاعه للصيغة العربية اما بالالحاق او بتغيير نقطه استعازا بانه قد صار ملكا لها .

وقد استطاع علماء اللغة من عصر التدوين ان يتخلصوا قواعد لمعرفة المعرب (116) ، تشهد بان املاء لم يترك لفوضى عشوائية ، بل خضع لقواعد كانت العربية تجرى عليها فيما تاخذه من اللغات الاخرى .

خامسا : لغة مشتركة ، وتلك ظاهرة عميقة الاثر فى حياة الانسانية . فلغة اى مجتمع صغر او كبر ، هى ترجمان عواطفه ومشاعره وافكاره واخباره واهدافه ، وسجل تاريخه وتراثه وادبه ، والحبل الذى يصل حاضره بماضيه ، وطريقه بتالده . والاشتراك فيها هو الاساس الاول للتعاطف والتعاون والشعور بالمواطنة والقومية (117) .

وهذا الركن فى ذاته مصدر من مصادر اعتزازنا بان لغتنا لغة اعلامية ، فلغتنا من اغنى اللغات الكبرى تراثا ، واطولها عمرا ، وابقاها على الزمن اتصالا ، وقد وسعت ما وصل اليها من معارف الاقدمين فى الماضى ، هى الآن تثبت قدرتها على الاتساع لثمار الفكر الانسانى الحديث ، بل انها تشارك باتتاجها فى تنمية الثروة الادبية والعقلية للعالم المعاصر .

والعرب الذين يتكلمون بلغة مشتركة لا يقلون عن 95 % من سكان الوطن العربى ، والباقون يتكلمون بلغة غير عربية ، او بلغة عربية مختلطة بغيرها كالاكراد والشركش والارمن والبربر ، وهذا العدد القليل بالنسبة الى الكثرة العظمى ليس من شانه ان يخدش الوحدة اللغوية بين العرب .

على ان اللغات غير العربية التى تتكلم هذه الاقلية الضئيلة ستتوارى شيئا فشيئا ، وتحل اللغة العربية محلها فى زمن ربما لا يزيد على نصف قرن ، بل ان بعضها فى سبيله الى التوارى ، لان الطلبة من الاكراد (118) والشركش (119) والارمن (120) والترك (121) فى الشام والعراق يتكلمون العربية وحينما يعم التعليم تتضاءل لغات الاقلية ، ثم تنقرض، ولا شك ان اسلام الاكراد والشركس والترك يشد ازر العربية ، ويسرع بها الى التغلب ، فتتم الوحدة اللغوية .

وتنطبق هذه الحالة على بعض سكان السودان وبعض سكان المغرب ، لان بالسودان عددا يتكلم بالزنجية الخالصة ، او بالزنجية المزيجة بالعربية ،

---

(115) ابراهيم انيس : « اللغة القومية والعالمية » ــ ص : 280 .
(116) السيوطى : « المزهر » ــ ص : 268 وما بعدها ــ (باب معرفة المعرب) .
(117) ساطع الحصرى : « محاضرات فى نشوء الفكرة القومية » ــ المحاضرة الاولى .
(118) الاكراد فى شمال العراق والشام عددهم نحو ستمائة الف فى اكثر من ثمانية ملايين الى سكان الدولتين لا تزيد على 7 % .
(119) الشركس فى سورية والاردن لا يتجاوز عددهم ستين الفا ونسبتهم الى السكان هى 1،3 % .
(120) هاجر الارمن الى الشام من تركيا بعد الحرب العالمية ويشكلون 4 % من السكان .
(121) الترك فى العراق وسورية وهم اقل عددا من الشركس .

ولان بالمغرب عناصر تتكلم بالبربرية الصرف ، او بالبربرية المختلطة بالعربية (122) .

واليوم يتقارب العرب تقاربا حثيثا ، وتبرز معالم القومية من نطاق الامل الى نطاق العمل ، ويجتهد العرب فى العمل على توحيد الثقافة المشتركة وتقاربها ، وتتصل البلاد العربية اتصالا دائما موصولا متواليا بالدراسة واجهزة الاعلام من صحافة واذاعة وغيرها .

فلا غرابة فى ان تجد الكتب والصحافة المصرية ترحيبا واقبالا فى الاقطار العربية كلها ، وان تجد مؤلفات العراق وسوريا ولبنان وغيرها عناية بها فى مصر ، ولا غرابة فى ان يتلهف العرب فى كل مكان لسماع الاذاعة العربية من اى قطر من اقطار العروبة.

الاعلام واللغة المشتركة :

هذه العوامل والخصائص تعاونت على ان تجعل من اللغة العربية ، لغة مشتركة متصلة بالحياة ، قابلة للتطور والتجدد ، وهذه اللغة المشتركة لغة اعلامية قامت على اذاعة الحقائق والوقائع ، حتى اذا نزل بها القرآن الكريم ، اعلن انه « كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من عزيز حكيم » .

من ذلك لا يستطيع ان يفسر حركة واحدة من حركات الرسول ولا كلمة واحدة من كلماته على انها دعاية . ولكن يستطيع ان تفسر كل هذه الحركات والخطب والاحاديث النبوية على انها اعلام بأكمل ما تحمل هذه الكلمة من معنى . حتى الشعر الذى كان يلقيه الشعراء بين يدى صاحب الرسالة — كشعر حسان بن ثابت — لم يكن من قبيل الدعاية للاسلام ولا لنبى الاسلام ، لان الاسلام ونبيه لم يكونا بحاجة الى شئ من ذلك ، بل ان القرآن نفسه ذم الشعراء .

قال تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، الم تر انهم فى كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون »، هذا ما علمنا بأن النبى كان يستمع الى الشعراء ،وكان يثيب بعضهم كذلك (123) .

وقد مثل ذلك فى الشرائع والعبادات التى سنها الاسلام كالصلاة والصيام والحج . فلم يكن اجتماع المسلمين للصلاة يوم الجمعة او فى الاعياد للدعاية او الاعلام . ولا كان اجتماع المسلمين فى مكة للحج كل عام للدعاية والاعلان . انما كانت هذه الشعائر الدينية تقام لوجه الله تعالى لا للمظاهر او الفخر او الزهو وغير ذلك من معانى الجاهلية .

واذا كان الاعلام الحديث ، قد تطورت وسائله منذ اختراع المطبعة التى لولاها لما ظهرت الصحافة ، اولى وسائل الاعلام الحديث ، ولما استطاعت الصحيفة ان تصل الى آلاف القراء فى وقت معين ، وعلى نمط معين ، فان الناس فى كل زمان ومكان يحتاجون الى تناقل الاخبار ، والى تفسيرها والتعقيب عليها ، وهم بحاجة ايضا الى المادة التى يقرأونها ولكى يتسلوا بها ، ويزجوا اوقات الفراغ . وهل ننكر لكل بيئة متحضرة من بيئات العالم القديم ما يسمى « بالرأى العام » ؟ وهل ننكر ان الادباء فى تلك البيئات المتحضرة هم الذين كانوا يتولون التعبير عن هذا الرأى العام بلغته المشتركة ؟ هكذا كان الحال عند الامم القديمة كمصر واليونان والرومان . وهكذا كان الحال فى العصور الوسطى الاسلامية كعصر الخلافة العباسية بوجه خاص . وهل نستطيع ان نتصور ان عصرا كهذا الاخير تعرض لكثير من الوان الصراع السياسى ، والصراع المذهبى ، والصراع العقلى ، والصراع الادبى قد خلا من الادباء الذين تأثروا بهذا الصراع او ذاك ، او كانوا سببا من اسباب حدوثه آنذاك ؟

وفى الادب العربى بنوع خاص وجدنا ان اقناع الرأى العام كان يسلك فى البيئات العباسية وغيرها من البيئات الاسلامية المتحضرة طريقة واحدة هى طريقة (الرسائل الحرة) يكتبها ادباء وعلماء لهم فى تاريخ الادب العربى شهرة واسعة . وكانوا بشهرتهم هذه مصدر خطر على الدولة حينا ومصدر امن لها حينا آخر . وهذه الرسائل التى كتبها اولئك الكتاب فى موضوعات السياسة والدين والادب والاجتماع هى — مع التجوز القليل — صحافة كاملة بالنسبة للعصور التى ظهرت فيها (124) .

---

(122) محمد عزة دروزة : « الوحدة العربية » — ص : 56 .
(123) عبد اللطيف حمزة : « الاعلام والدعاية » — ص : 170 .
(124) عبد اللطيف حمزة : « ادب المقالة الصحيفية » — مصر — ج : 1 — ص : 6 — 7 .

ذلك كله فى العصور الاولى للادب العربى . اما فى العصر الحديث وهو العصر الذى قال فيه شوقى :

لكـــل زمـــان مضـــى آيـــة
وآيـــة هـــذا الزمـــان الصحف

فقد ظهرت الصحافة ، والصحافة فى ذاتهـــا اداة شعبية ديمقراطية اكثر منها اداة رسمية ديوانية . واذا كان لديوان الانشاء اكبر الفضل فى تقدم الكتابة العربية فى العصور التى اشير اليها ، فقد اصبح للصحافة اكبر الفضل فى تقدم النثر الصحفى واللغة الاعلامية فى العصر الذى نعيش فيه .

ذلك ان اللغة العربية لغة ديمقراطية كما تقدم ، فأصبح النثر الصحفى ديمقراطيا يجد نفسه واقفا على خدمة الشعب . ومن ثم اصبحت الصحافة فى عصرنا جادا فى سبيل تقدمه وتطوره ، وبحثا دائبا عن نظريات آراؤنا وافكارنا ، وحركاتنا وسكناتنا ، وكتبا نقرأ فيه اخبارنا ، ونعرف به آثارنا .

واذا كان عالم اليوم يشهد اهتماما متزايدا بالاعلام ووسائله ، وايمانا صادقا برسالته واهدافه ، وعملا جادا فى سبيل تقدمه وتطوره ، وبحثا دائبا عن نظريات يستند اليها وقواعد تحكمه ، فان هذا الاهتمام امتداد للانتصارات التى حققها الانسان فى سبيل التغلب على ما يفصل بينه وبين اخيه الانسان من حواجز وسدود وقد شهد القرن الحاضر نهضة كبيرة الاثر فى اللغـــة العربية ، تمثلت فى نمو ثروتها بما جد عليهـــا مـــن عشرات الوف المصطلحات العلمية والحضارية ، وفى اتساع آفاقها فى التعبير نتيجة لما حققته الحياة العربية الحديثة من تقدم فى مختلف نواحيها الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وفى تجدد اساليبها وتخلصها مما علق بها فى عصور ما قبل النهضة من السطحيـــة والزخارف اللفظية المسرفة ، وفى تطويـــر قواعدهـــا واشتقاقاتها وتطويرها لمطالب الفكـــر الحديث ، وفى العناية بدراسة ظواهرها على المناهج العلمية التـــى جاءت مع تطور الدراسات الصوتية واللغوية ، وفى التقارب الملحوظ بينها وبين لهجاتها المحليـــة نتيجـــة انتشـار التعليم ووسائل الاعلام التى اصبحت عناصر اساسية فى حياة الامة العربية .

وعلى ان اهم المتاعب التى واجهت نهضة اللغـــة العربية ، ولا تزال تواجهها ، هى المشكلة التى نجمت عن وجود لهجات محلية تزاحم الفصحى ، وتحد من سرعة نموها وانتشارها ، وتستأثر دونها بالتعبير عن ميادين الحياة اليومية للناس وتحرمها بذلك الافادة من الخصب والتجدد والحيوية التـــى يتميـــز بهـــا لسان التخاطب فى المجتمع .

واللهجات ـــ كما هو معروف ـــ ليست جديدة على العربية ، فقد كان للعرب فى جاهليتهم لغات ، عملت فيها عوامل التقريب قبل الاسلام حتى انشأت منها تلك اللغة الفصيحة المشتركة ، والتى جاء الاسلام وكتابه العربى المبين فأعطياها شخصيتها السوية الخالدة ، ووجودها العالمى الواسع وان كانت قد بقيت من لغات الجاهلية آثار نصادفها هنا وهناك فى بعض نصوص الادب القديم وكتب التراث ، كما نلمسهـــا فى بعض العـــادات اللغويـــة للمتكلمـــين باللسان العـــربـــى الى اليـــوم (125) .

ومن المعروف ان البيئات الاسلامية ذات الطـــابـــع العربى الغالب قد عاشت منذ تلك القرون بنظـــامين لغويين : نظام للثقافة والعلم والادب توامـــه العربية الفصيحة ، ونظام للتخاطب توامه تلك اللهجات الدارجة التى تجردت من الخاصة الرئيسية للفصحى وهـــى الاعراب ، وعدت عليها عوادى الاختصار فى اشكالها والتحريف فى كثير من صيغها ، وتسربت اليهـــا مـــن مختلف الجهات عناصر دخيلة وعامية . وظلت الحال على هذا المنوال طوال العصور : جماهير تنشأ على العامية فى حياتها ، وتمتلك ناحيتها بطريقة طبيعيـــة لا تحتاج بعد الطفولة الى تدريب او تعليم ومثقفون يشاركون الجماهير عاميتهم فى لسان التخاطب ولكنهم فى المجال الثقافى يحصلون الفصحى تحصيلا ، ويحفظون قواعدها حفظا ، ويمرون بمراحل طويلة من التدريب ويعـــالجون مـــا تـــزل به السنتهم واقـــلامهم مـــن اخطاء فى اعراب الالفاظ ، او ضبطهـــا او دلالاتهـــا ، وتختلف حظوظهم من القـــدرة على استعمالهـــا تبعا لعوامل النشأة والاستعداد الشخصى والمجال الثقافى الذى يتحركـــون فيـــه .

ومهما يكن من بقايا المصرية القديمة فى عربية اهل

(125) خلف الله : « بحوث ودراسات فى العربية وآدابها » ـــ ص : 268 وما بعدها .

مصر (126) ، او بقايا البربرية فى لهجة المغاربة ، فان هذه البقايا لا تنفى انتماء اللهجتين الى العربية ، الا عند ما يتطورون امكان فهم الشعب المصرى او المغربى ، للغات اسلافه قبل الفتح والعرب .

ذلك ان اللهجات العامية لم تحل دون فهم عامة الجماهير لفصحى العربية ، لا فى كتابهم الدينى فحسب، ولكن كذلك فيما يسمعون من قصائد وخطب وانا شيد. لان عامياتنا لا تعدو ان تكون لهجات عربية ، تتفاوت وتختلف ، وتظل ابدا متصلة بالفصحى العليا فى القرآن الكريم الذى حفظ سليقتها اللغوية ، وفى الخطب المنبرية والسياسية وبالمحافل الدينية والاعياد الاسلامية ، وفيما يشدو به ائمة الطرق من اناشيد صوفية ، وفى حماسيات الخطباء او الشعراء قادت حشود كتائبنا فى المعارك التى عرفها تاريخنا الطويل (127) .

وكان يمكن ان تستمر الحال فى العصر الحديث على ما كانت عليه من ازدواج بين الفصحى واللهجات العامية لولا ان الموقف تغير ، وان عوامل اجتماعية وثقافية وقومية جرت عليه ، ومن اهمها تطور وسائل الاعلام التى اسهمت فى التنبيه الي ما خلفه عصر الركود فى الفصحى وآدابها من رواسب الضعف والسطحية والزخرفة المسرفة والبعد عن واقع الحياة، واتجهت بلغة العرب الى التزام الوضوح واليسر فى استخدام الفاظها ، والتقريب بينها وبين مدارك الناس ومألوف تعبيرهم ، والعمل على تنمية قاموسها ، وربطها بحياة العصر الحديث وحضارته .

ومن الانصاف ان نقرر ان الاعلام لم يكن وحده فى هذا التطوير وانما كانت هناك علاقات تأثير وتأثر بينه وبين مجمع اللغة العربية والمجامع العلمية وجهود الافراد والهيئات ومعاهد العلم قطعت اشواطا بعيدة فى اغناء القاموس العلمى والحضارى للغة العرب وفى توسيع طرق تنميتها ، وتيسر قواعدها وكتابتها ، وتصنيف المعاجم الحديثة لها .

ومن الحق ان نذكر ان اصوات الدعاة الى احلال العامية محل الفصحى قد خفتت ، وان تقاربا ملحوظا بين لغة الثقافة ولغة الحياة اليومية قد حدث ، وذلك من تأثير ازدياد الجمهور القارئ وتطور وسائل الاعلام ، وتنوع فرص اللقاء والاحتكاك والعمل القومى المشترك بين المثقفين والجماهير (128) .

ومن خلال هذا التقارب الذى حدث فى الوطن العربى بين لغة الثقافة ولغة الحياة اليومية تولد لغة الاعلام لغة الصحافة والمكاتبات والتدوين والتسجيل ، لغة الاتصال بالجماهير ، تولد على ايدى الرواد الذين واجهوا صدفة التعامل مع الحضارة الحديثة مثل رفاعة رافع الطهطاوى رائد المدرسة الصحفية الاولى فى مصر، والتى كان رجالها مقيدين بقيود الماضى القريب ، حين كان النثر العربى يميل الى السجع وغيره من الوان البديع التى فتن بها ادباء العربية منذ القرن الرابع الهجرى ، وحين كان هذا النثر محبوسا فى اروقة الازهر لا يكاد يتجاوزه الى الحياة فى خارجه . ومن ثم ورث الصحفيون الاولون فى القرن الماضى لونا باهتا من الوان النثر العربى لم يكن خليقا بأن يحتذى ، ولا كان جديرا بأن ينسج على منواله . ومع ذلك مضى رجال المدرسة الاولى يكتبون صحفهم بطريقة لا تبعد كثيرا عن هذه الطريقة القديمة ، ولا تكاد تتحرر منها الا فى اوقات قليلة ، ثم جاء الوقت الذى سئموا فيه السجع ، وزهدوا فيه البديع ، وكان ذلك ايذانا بمجئ المدرسة الصحفية الثانية ، وهى المدرسة التى نعمت بقسط من الحرية فى الاسلوب لا شك فى انه كان كبيرا بالقياس الى القسط الذى نعمت به المدرسة التى سبقتها ، وكان من اشهر رجال هذه المدرسة : اديب اسحاق ، ومحمد عبده ، وعبد الله نديم ، والمويلحى الكبير ، وبشارة تقلا صاحب الاهرام ومن اليهم .

وعلى هذا فالفرق بين المدرستين السابقتين ان الاولى كانت تكتب بالاسلوب القديم الموروث ، وتحاول انشاء المقال الصحفى ، وتعثر كثيرا فى هذه المحاولة ، وكان اسباب ذلك عنصران واضحان هما :

عنصر الوراثة ، وعنصر آخر هو قصور هذه المدرسة

---

(126) راجع كتاب الدكتور صبحى : « قواعد اللغة المصرية » وكتاب محمد رضا الشبيبى : « الفاظ مغربية » و « رحلة الى المغرب » .
(127) عائشة عبد الرحمن : « لغتنا والحياة » ـ ص : 99 .
(128) خلف الله : « بحوث ودراسات » ـ ص : 271.

قصورا تاما عن فهم الفرق بين لغة الكتب ولغة الصحف ثانية (129) .

واما المدرسة الثانية ، فانها اخذت تتحرر — نوعا ما — من قيود الاساليب الموروثة ، واصبحت قادرة على انشاء المقال الصحفى بلغة — هى مع ذلك — اصلح لكتابة الادب او الكتب منها لكتابة الصحف . اى ان المدرستين تشتركان فى صفة ، وتفترقان فى اخرى تشتركان فى انهما لم تصلا بعد الى تفرقة واضحة بين لغة المقال الادبى ، ولغة المقال الصحفى . وتفترقان فى ان الاولى قصيرة فى اسلوبها بقيود الماضى البعيد او القريب ، عاجزة فى الوقت نفسه عن التعبير الحر الطليق هابطة المستوى فى مجموعها من حيث الاسلوب فى حين ان الثانية حاولت بالفعل ان تتحرر من هذه القيود ، وتكتسب من الميزان الادبى ما جعلها تحسن استخدام هذه الزينة او القيود حين تريد استخدامها على سبيل اظهار المقدرة الفنية — كما كان الشأن مع اديب اسحاق من رجال المدرسة الثانية بنوع خاص .

والحق ان من يطلع على كتابات اديب اسحاق لتروعه تلك الاساليب العالية التى كتب بها فى الصحف المصرية او اللبنانية .

« ومصدر الجمال فى اسلوب اديب اسحاق اشياء كثيرة منها : سرعة الانفعال عند هذا الشاب ، مما جعل اسلوبه ادنى الى طبيعة الشعر منها الى طبيعة النثر . ومنها تلوين الكلام عنده بالمحسنات اللفظية والمعنوية ، مع قدرة ظاهرة على هذا التلوين فى غير تكلف ممقوت ولا صناعة مرذولة ، ثم منها الثقافة زودته بمعان كثيرة ، وجعلت الفرق بينه وبين رجل كمحمد عبده كبيرا . وباختصار نرى ان اسلوب اديب اسحاق يلذ الاديب اكثر مما يلذ الصحفى (130) .

وبقيت المدرسة الصحفية الثانية تكتب صحافتها بهذه الطريقة الادبية العالية حتى جاء الاستاذ الامام محمد عبده فأخذ يقترب شيئا فشيئا من لغة الصحف ثم جاء عبد الله نديم واقترب كثيرا منها ، وساعده على ذلك ميله الطبيعى اليها واهتمامه بالاسلوب الخطابى الذى برع فيه براعة منقطعة النظير والاسلوب الخطابى ادنى بطبيعته الى الاسلوب الصحفى منه الى الاسلوب الادبى (131) .

والى ذلك الوقت كانت الصحف دورية ، بمعنى انها تصدر مرة فى كل اسبوع او اسبوعين او شهر او شهرين ، غير انه منذ ظهور (المؤيد) او قبل ذلك بوقت قليل جدا اصبحت الصحف يومية . وغدت الصحيفة تنتظر كل يوم غذاء جديدا فى وقت معين ، وعلى نمط معين ، وكان لهذه الحالة الجديدة اثر بالغ فى تطور اللغة التى تستخدم فى كتابة الصحف ، فاصبحت لغة المدرسة الصحيفة الثالثة لا مجال فيها للاناقة الفنية التى توخاها الرعيل الثانى من رجال الصحف .

ولا مجال فيها للزخرف الفنى الذى امتازت به اساليب تلك الطبقة الثانية من طبقات الصحافة ، وهكذا شرع الاسلوب الصحفى يبتعد قليلا قليلا عن مجال التعبيرات الادبية ويقترب شيئا فشيئا من مجال التعبيرات الصحفية .

ولم يكد ينتهى القرن التاسع عشر حتى اصبح للصحافة فى مصر لغة خاصة بها ، وكان ذلك على يد الطبقة الثالثة او المدرسة الاخيرة من مدارس الصحافة المصرية فى القرن الماضى واوائل القرن الحالى ، وهى المدرسة التى بدات بالسيد على يوسف صاحب المؤيد (132) .

وقد احاطت بهذه المدرسة ظروف سياسية خطيرة لا شك ان من اهمها ظرف « الاحتلال البريطانى » الذى خلق فى نفوس المصريين اليأس مرة ، وغرس فى نفوسهم روح المقاومة الفنية مائة مرة . وكان من اثر هذا ان نشطت العقول والاقلام فى مصر ، واحتاج الامر الى ظهور طبقة جديدة من الكتاب اصبح لها اسلوب جديد يصح ان يطلق عليه اسم « الاسلوب السياسى وكان يمثل هذه الطبقة الاخيرة فيما عدا السيد على يوسف صاحب المؤيد ، ومصطفى كامل صاحب اللواء ، واحمد لطفى السيد محرر الجريدة وامين الرافعى صاحب الاخبار ، وعبد القادر حمزة صاحب

---

(129) حمزة : « مستقبل الصحافة » — ص : 118 .
(130) حمزة : « ادب المقالة الصحفية » — مصر ج : 2 — ص : 25 .
(131) حمزة : « مستقبل الصحافة » — ص : 120.
(132) المرجع السابق — ض : 121 .

البلاغ ، ومحمد حسين هيكل محرر السياستين اليومية والاسبوعية .

وكما كانت هذه المدرسة الصحفية الثالثة جديدة فى الاسلوب السياسى ، فكذلك كانت جديدة فى التفكير السياسى .

وهذه المدرسة الحديثة ، هى التى ارست اسس اللغة الاعلامية المعاصرة من ترسل وبساطة ووضوح وحرية التعبير القائم على التعقيل الصحيح .

ومعنى هذا ان حركة الفصل بين الاسلوبين الادبى والصحفى انما بدأت بصاحب المؤيد . ثم كان لكل واحد من اولئك الصحفيين الذين اشرنا اليهم شخصيته التى يستقل بها عن تلاميذ هذه المدرسة . وقد كان هذا الاستقلال فى ذاته خطوة من خطوات الانتقال من الاساليب ذات الطابع الادبى الى الاساليب ذات الطابع الصحفى . او بعبارة اخرى كان كل واحد من هؤلاء يقطع بقلمه مرحلة جديدة فى طريق الفصل النهائى بين الاساليب الادبية والاساليب الصحفية . ولذا كان لكل منهم اسلوب معين يمتاز به عن سواه من كتاب المدرسة التى ينتمى اليها .

- فعلى يوسف عرف بالاسلوب الحماسى (133) .
- ومصطفى كامل عرف بالاسلوب الحماسى (134)
- واحمد لطفى السيد عرف بالاسلوب الثقافى (135)
- وامين الرافعى عرف بالاسلوب الدفاعى (136).
- وعباس العقاد عرف بالاسلوب النزالى (137).
- ومحمد حسين هيكل عرف بالاسلوب الموضوعى (138) .

وفى راينا ان الدكتور هيكل قد اكد اللمسات النهائية للغة الاعلام العربى المعاصر ، فهو فى « ثورة الادب » (139) ينص على وجوب اتقان اللغة لامكان اختيار اللفظ الذى يصلح للتعبير عن القصد تعبيرا دقيقا وموسيقيا معا . كذلك كان هيكل يرى ان دراسة اللغة لا تتصل بالادب لذاته الا من حيث هى كساء الادب فصار اجدرها بالاقتراح بالادب ما كان شفافا تطور صفة الازياء باقدار الناس فى الحياة : وصلة الازياء بالاقدار تتلاشى رويدا بما تنزع طبقات الجماعة كلها نحوه من البساطة فى اللباس بساطة يمتاز فيها الذوق على قيمة الثياب ، حتى لنرى اكثرها اخذا للنظر اشدها غنية من الحياة ودقائقها . كذلك تطورت لغة الادب فصار اجدرها بالاقتراح بالادب ما كان شفافا عن المعانى والصور التى يعبر عنها معوانا على زيادة ما فى هذه الصور والمعانى من حياة وموسيقى . هذه اللغة الشفافة المضيئة السيالة التى لا تحجب عنا جمالا مما اراد الاديب اثناء تدفقه واندفاعه ، فى تفكيره او تصويره او تغنيه وشدوه ، هى التى تعتبر للادب كساء وتتصل بالادب فى كسائها اياه ، حتى لتصبح جزءا من رحيق الحياة الذى يعبر عنه الادب . وهى كلما لطفت وازدادت بساطة ، وشفت بذلك عن كل ما اراد الاديب ان يحملها اياه وكانت فى ذلك النغمات الصادرة عن نفس الاديب الصائغة العبارة عنه ، كانت الصق بالادب فى العصر الذى صدر هذا الادب عنه (140) .

ومعنى هذا ان اللغة فى نظر هيكل وسيلة حية تخضع للتطور ، ولهذا سنجد هيكل يذهب فى تجديد اللغة مدى بعيدا ، ومن ذلك ما يذكره فى مقال بعنوان : « اللغة والاسلوب » (141) .

عن اناتول فرانس حين سئل فى رايه عن لغة كبار الكتاب والشعراء امثال شكسبير وموليير ، فقال : انها لا تخلو من الخطأ حتى فيما يتعلق بقواعد النحو

---

(133) حمزة : « ادب المقالة » — ج : 4 .
(134) حمزة : « ادب المقالة » — ج : 4 .
(135) حمزة : « ادب المقالة » — ج : 5 .
(136) حمزة : « ادب المقالة » — ج : 6 .
(137) حمزة : « ادب المقالة » — ج : 7 .
(138) شرف : « عباس العقاد صحفيا » .
(139) شرف : « الفن الصحفى عند الدكتور هيكل ».
(140) ص : 37 — 38 ايضا المرجع السابق — ص : 43 .
(141) شرف : « الفن الصحفى عند الدكتور محمد حسين هيكل » — ص : 431 .

والصرف . وضرب على ذلك بعض الامثال ثم اضاف : وخطأ هؤلاء النوابغ هو بعض حسن الخطأ الذى يصيب اللغات لان ذلك الخطأ كثيرا ما ينشأ عنه تطور صالح فى قاعدة من القواعد ما كان ليقع لو ظل الكتاب المتحذلقون فى قواعد النحو والصرف هم وحدهم المسيطرين على اللغة ، بل ان هؤلاء ليفلون اقدامهم بأغلال الجديد فيحولون بينها وبين مجاراة الحياة فى نموها وتطورها ، ويوافق هيكل هذا الراى الذى قال به اناتول فرانس « تمام الموافقة ـ كما يقول ـ بل انى لارى فى بعض الاحايين خطأ لغويا سواء فى اداء اللفظ او فى صرف اللفظ ونحو العبارة ، لكنى استطيب هذا الخطأ فأود لو تتاح له الحياة وتيسر عليه القاعدة خطأ مشهور خير من صواب مهجور . ثم تسبغ الايام على هذا الخطأ من القداسة فيصبح وهو القاعدة التى قال بها سيبويه » .

ويلاحظ فى هذه الآراء حول اللغة انها تقترب باللغة من النثر العملى كما يذهب بعض اساتذة الادب العربى الحديث (142) للتمييز بين لغة الصحافة وبين النثر الفنى والنثر العملى يعتبر اصطلاحا لمسايرة لغة الصحافة للحياة العملية بما يجب ان يتوفر فيها من عوامل اهمها فى عصرنا الحديث السرعة .

ومن اجل ذلك وجدنا هيكل فى دعوته لتجديد اللغة يقارن بين ازياء العصور الماضية وازياء الحياة الحاضرة ومختلف مظاهرها ، فالحياة الانسانية اليوم تنتزع الى البساطة والى الصحة والى حكم الانسان حياة الوجود بكل ما تمكنه قواه ومواهبه ، والى ظهور الذاتية الانسانية خلال ذلك كله ظهورا قويا واضحا .

فلم يبق شخص الانسان كومة من النسج النفيس تزينها الاشرطة والدنتلات وتحملها الاحذية المرصعة، وتكسو اعلاها شعور مستعارة ، وتطل من خلالها صورة وجه انسانى مختلف تحت الالوان ، بل اصبح اللباس من البساطة بحيث ينم عن خطوط الجسم وحركاته ويشف عن الحياة الانسانية حتى لقد كاد يصبح بعضها ، وصارت الحياة الانسانية كذلك هى موضع الجمال لا اللباس الذى يكسوها . وبمقدار ما يعبر الزى عن الحياة يكون اشد للنظر استرعاء واقوى عن جمال الحياة تعبيرا . وكبساطة الناس فى اللباس بساطتهم فى الطعام . لم تبق الالوان الكثيرة الشديدة الدسامة محل اللذة والرغبة بل صارت الالوان التى تلائم الصحة وتتفق معها وتعاون عليها هى التى يميل الناس الى اتقان صنعها لتجمع لهم بين حسن الغذاء ولذته . كذلك اصبح الترف ذاته ينزع الى البساطة والصحة . واذن فالحياة الانسانية قد صارت من الزى والطعام والترف كما اصبحت من مظاهرها العقلية والفنية تريد ان تكون هى الظاهرة القومية القوية لا يخفيها اللباس بل ينم عنها ولا يتخمها الطعام بل يقويها، ولا تغص بالترف بل تنعم به . كذلك تريد الا يثقل اللفظ على روح الكاتب ، والا تجمد التقاليد بريشة الفنان وان تطبع الذاتية الانسانية حرة متوثبة دائمة الابداع والسعى فى ابداعها الى التحكم فى كل ما فى الكون وجعله بعض متاع الحياة لكل فرد من الناس ، متاع اساسه البساطة والصحة (143) .

ويبين من نظرات هيكل تلك فى تجديد اللغة ، انها تذهب بالاسلوب الى ان يستمد بلاغته الحقيقية من الواقع ومن الحياة العامة ، لان بلاغة الاسلوب الصحفى ترجع الى انه يخاطب الوف الالوف من القراء ولا بد لهؤلاء جميعا ان يفهموه جيدا . وفى ذلك يقول الصحفى الانجليزى المشهور ديفو كلمته التى نذكرها دائما فى هذا المجال ، وهى قوله : انه الاسلوب الذى اذا تحدثت به الى خمسة آلاف شخص ممن يختلفون اختلافا عظيما فى قواهم العقلية ـ فيما عدا البله والمجانين ـ فانهم يفهمون ما اقول (144) .

فالواقعية اذن فضلا عن كونها صفة من صفات الاسلوب الصحفى ، فانها كذلك مصدر من مصادر القوة والبلاغة فى هذا الاسلوب . ذلك ان براعة المحرر الصحفى هى فى ان يجعل من القارئ شاهدا من شهود الحادث ، وشريكا له فى الحكم على القضية السياسية او الاجتماعية او الادبية التى يعرضها فى الصحيفة (145) .

(142) حمزة : « مستقبل الصحافة » ـ ص : 18 ـ محمود فهمى : « الفن الصحفى » ـ ص : 77 .
(143) هيكل : « ثورة الادب » ـ ص : 40 .
(144) حمزة : « ادب المقالة » ـ ج : 8 ـ ص : 400
(145) نفس المرجع ـ ص : 401 .

وذلك ما تجده فى مفهوه هيكل لتجديد اللغة وارتباطها بالواقع ، فالحياة دائمة التطور والجديد هو آخر مظاهرها . وهذا وحده هو السبب فى انه جديد ، فاذا انقضى عصره واحدثت غير الحياة جديدا بعده اصبح هو قديما . وما دمت تعيش فى عصر فانت متأثر حتما بحياة هذا العصر ، متأثر بالجديد الذى يحدث فيه (146) .

مستقبل الفصحى فى ظل الاعلام :

ويبين مما سبق ان الصحافة قد اسهمت فى التقارب بين لغة الثقافة ولغة الحياة اليومية ، ونشأ من تقاربهما المستوى العملى الاجتماعى فى اللغة ، وهو الذى يستخدم فى الصحافة والاعلام بوجه عام . فاصبح لدينا ثلاثة مستويات للتعبير اللغوى : اولها المستوى التذوقى الفنى الجمالى ويستعمل فى الادب والفن ، والثانى هو المستوى العملى النظرى التجديدى ويستعمل فى العلوم ، والثالث هو المستوى العملى الاجتماعى .

وهذه المستويات الثلاثة كائنة فى كل مجتمع انسانى والفرق بين المجتمع المتكامل السليم والمجتمع المنحل المريض هو فى تقارب المستويات اللغوية فى الاول ، وتباعدها فى الآخر ، فتقارب مستويات التعبير اللغوى دليل على تجانس المجتمع ، وتوازن طبقاته ، وحيوية ثقافته ، ومن ثم الى تكامله وسلامته العقلية ، فمن الثابت ان العصور التى يسود فيها نوع من التآلف بين المستويات العلمية والادبية والعملية ، هى غالبا ازهى العصور وارقاها . اما اذا كان كل مستوى لغوى بعيدا كل البعد عن الآخر فهو دليل على الانفصام العقلى فى المجتمع . وهذا يؤدى الى التدهور والانحطاط والشيخوخة والانحلال (147) .

ويبين مما تقدم جميعا ، ان اللغة العربية ، قد قطعت هذا الشوط نحو التقارب بين مستويات التعبير عن طريق الصحافة ، ومن جهة اخرى فقد حقق التطور السياسى والاجتماعى فى المجتمع العربى الحديث قدرا من تذويب الفوارق بين الطبقات ، ومن اشتراك طوائف المواطنين فى ممارسة الشؤون العامة والنقاش فيها وفى قيادة الهيئات وادارة المؤسسات ، واصبح من الطبيعى ان تضم دور النيابة والمجالس الشعبية وغيرها اعضاء من جماهير الشعب من الفلاحين والعمال واصحاب الحرف الى جانب العلماء ورجال الثقافة من المواطنين ، ولم يعد من المستساغ فى نظام الوحدة ان يختلف لسان التعبير من طائفة الى اخرى فى خصائصه الجوهرية (148) .

واذا كان للغة الصحيحة الموحدة ، شأنها فى كل قطر من اقطار العالم العربى الحديث فان نمو الوعى بالقومية فى الوطن العربى الاكبر قد اصبح يفرض على العرب جميا عناية اكبر بلغتهم الفصيحة فى جميع وسائل الاعلام من صحافة الى اذاعة وتلفاز لتحقيق ذلك التقارب المنشود بين العربية الفصحى ولهجاتها ، من جهة ، وبين مستويات التعبير المختلفة من جهة اخرى . وتجعل من اقطار وطننا الكبير وحدة فكرية ومزاجية ، تنتقل بها وسائل الاعلام من ساحل الخليج ووادى الرافدين الى ساحل الاطلس ، ومن اعالى الفرات فى قلب آسيا الى بوادى دارفور وكردفان فى قلب افريقية ، ولبناء قوميتها .

ولا شك ان اللغة العربية الصحيحة قد كسبت — من هذا التطور العربى القومى — مزيدا من النفوذ فى الاتصال الجماهيرى ، محليا وعالميا ، واصبح لها مكانها كلغة عمل فى بعض المنظمات الدولية ، وهذا وضع يستلزم ان تجتاز تلك اللغة الاعلامية الفصيحة المعادلة الصعبة بين التراث او المعاصرة ، وان تسعى الى التقريب بين مستويات التعبير اللغوى بحيث لا تكون مقطوعة الصلة بلغة التراث ولا تكون مقطوعة الصلة بلغة العلم والحضارة .

وتشير الابحاث التى اجراها الدكتور ابراهيم امام فى نواحى الاعلام وعلم الدلالة الى ان اللغة العربية فى مسيس الحاجة الى الاثراء الفكرى ،

---

(146) هيكل : « ثورة الادب » — ص : 46 .
(147) « دراسات فى الفن الصحفى » و « العلاقات العامة » و « والمجتمع والاعلام و «الاتصال بالجماهير » ايضا .
(148) خلف الله : « بحوث ودراسات » — ص : 183 Language of journalism

والتقارب فى المستويات المختلفة ، ولا يتأتى ذلك الا عن طريق استعمال اللغة فى ميادين العلم الحديث ، وخاصة الطب والهندسة والعلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية الحديثة . ويذهب الدكتور امام الى اننا لا ينبغى ان ننتظر حتى تتقن المصطلحات ، فلا يكفى ان نبقى بمعزل عن الحضارة الحديثة . وما لم نستعمل لغتنا فى هذه الميادين فاننا نحكم على انفسنا بالعزلة والتخلف ، فاللغة والفكر وجهان لشئ واحد كالعملة تماما . ولكى تساير اللغة العربية الحضارة الحديثة لا بد وان تعبر عن الفكر الحديث وهى قادرة على ذلك، وانما تعانى من عدم الاستعمال .

وان وسائل الاعلام هي من افضل الوسائل لانتشار اللغة العربية والربط بين رجال الفكر من جهة وبينهم وبين الجماهير فى العالم العربى من جهة اخرى وقد اسهمت الصحف منذ نشأتها فى اثراء اللغة العربية ونشرها ، وكان منها ما اتخذ منه بعض المفكرين اداة لدعواتهم الاصلاحية كصحيفة «الجريدة» التى دعا رئيس تحريرها — احمد لطفى السيد فى مطالع القرن الحاضر لتطويع اللغة الفصيحة والتقريب بينها وبين لسان التخاطب باصطناع اسلوب ميسر للكتابة بها للجماهير ، ومنها ما حصلت بالبحوث العلمية فى شتى المعارف ومنها اللغة والادب كمجلتى « المقتطف » و « الهلال » اللتين سجلت مجلداتهما المحاولتين الاوليين فى انشاء المجمع اللغوى بالقاهرة ومباحث الندوات العلمية التى بحثت شؤون اللغة والادب ، كندوة « دار العلوم » التى عقدت عام 1908 وناقش فيها طائفة من كبار الاساتذة والمفكرين مشكلات الفصحى والعلمية وموقف العصر الحديث من التطور اللغوى ، ووضع اسماء للمسميات الحديثة وغيرها من المسائل .

ومن تلك الصحف ما كان مجالا لمجلات ادبية ولغوية كان المثقفون والشباب بوجه خاص يتابعونها فى شغف واهتمام « كالسياسة الاسبوعية » ومجلتى : «الرسالة» و « الثقافة » لما كان يثار على صفحاتهما من معارك ادبية يشترك فيها قادة الفكر واعلام الكتابة من امثال طه حسين وهيكل والمازنى والعقاد ومصطفى صادق الرافعى والزيات واحمد امين وزكى مبارك وغيرهم ، وقد امتازت « الرسالة » من بين هذه المجلات بسعة انتشارها فى العالم العربى ، وبأنها كانت شبه مدرسة تخرج فيها كثير من الباحثين والكتاب فى البلاد العربية.

على ان الصحافة اليومية قامت — ولا تزال تقوم فى مصر وغيرها من اقطار الوطن العربى — بنصيب كبير فى تنشيط الثقافة الادبية واللغوية بما كانت تخصصه من صفحاتها لنشر قصائد الشعراء الكبار فى المناسبات والاحداث القومية الهامة ، ونشر الاعمال القصصية والمقالات النقدية .

وقد تطور التحرير الصحفى فى الوطن العربى تطورا كبيرا وبرز فى ميدانه منذ اوائل هذا القرن كتاب نابهون واسعوا الثقافة، ارتفعت اساليب الكثيرين منهم الى مستوى عال من البيان ، واثر بعضهم فى اساليب الناشئين من الكتاب تأثيرا ملحوظا (149) .

كما ان الاذاعة والتلفزة باستخدامها العربية تقدم للشعب ثروة لغوية ترفع من مستواه الثقافى والادبى كما انها تعمل على توحيد الامة العربية . فالاذاعة التونسية مثلا تقوم بخدمة مزدوجة .

فانها باستعمالها اللغة « العربية » وهى التى يستعملها الاستاذ عبد العزيز العروى ترفع من مستوى التونسية الدارجة وتقربها من الفصحى المبسطة وهذه خدمة تستحق التقدير . ثم ان اذاعة المحاضرات والاخبار بالفصحى يعود السامعين على تفهم لغتهم القومية الرفيعة ويساعد على انتشارها (150) .

وقد اسهمت الاذاعات العربية على اختلاف محطاتها ومصادرها فى نشر الفصحى وتمكينها فى النفوس مكملة عمل الصحف ، بل ان تأثير هذه اوسع لوجودها فى كل دار يستمع اليها الذكور والاناث ، والصغار والكبار كل يوم اكثر من مرة . واكثر اذاعتها بلغة سليمة فى الجملة ، وبعضها القليل يسمو بالسامعين الى مستوى رفيع على حين كان بعضها يحط بضعف لغته او لحسن تلاوته . لكن آثارها فى الجملة واسعة فى خدمة اللغة العربية .

وقد لمس ذلك المعلمون الابتدائيون ، فقد انخفض

---

(149) المرجع السابق .
(150) مجلة « اللسان العربى » — العدد السادس — 1388 هـ — ص : 28 .

عناؤهم فى افهام طلابهم معانى النصوص لمبادرة اذهانهم الى المقصود ، وذلك دون شك من فضل العناية بلغة الاذاعة (151) .

وتأسيسا على ذلك يمكن القول ان الاعلام قد اسهم فى تعميم العربية الفصحى لغة جامعة مشتركة يقرؤها اليوم ويكتبها ويستمع اليها نحو ثمانون مليونا من الخليج العربى الى المحيط الاطلسى . يصغى الكويتى فى اقصى الشرق العربى الى اذاعة الرباط فى اقصى المغرب كما يصغى الى اذاعة الكويت نفسها ، ويفهم الرباطى المغربى اذاعة الكويت المشرقية فهمه لاذاعته المغربية .

بل ان المسلم الصينى المتعلم او التجارى ليدخل المغرب العربى فيفهم عن علمائه ويفهمون عنه بهذه العربية الفصحى التى اتسع انتشارها منذ ثلاثة عشر قرنا فكانت الى اليوم اقرب الى اللغة العالمية .

اذا كان الاعلام قد حسم — ولا يزال يحسم — مشكلة الازدواج اللغوى ، لصالح اللغة المشتركة الفصحى ، فان هناك من يدعو الى استخدام الحروف اللاتينية لكتابة اللغة العربية ، ويزعمون قصور الحروف العربية فى الاداء ، ويذهب سعيد شهاب الدين (152) ان اللغة الفرنسية مثلا لا تملك الا 26 حرفا للتعبير عن 36 صوتا ، فلا انطباق اذا بين الصوت والرمز . ويقول غالبشيه ان الاملاء الفرنسى صعب جدا ويكاد يكون اصعب بكثير من غيره (153) . وغرض لادعائهم ان الكتابة العربية ليست عملية اقتصادية ، مثبتا العكس ، فكل كلمة عربية اذا كتبت باللاتينية احتاجت الى ضعفى عدد حروفها العربية ، وينتهى الى قوله :

« ولا نقول ادعاء اذا اعلنا ان اللغة العربية بحروفها هى الاولى فى العالم التى تجرى بسهولة فى كتابة الصحف والمجلات والنشرات اليومية والاسبوعية فهى اكثر اختصارا من غيرها واوفر اقتصادا فى الوقت والمال والنظر والكتابة ، وفى سهولة التبادل التجارى والفكرى وغيره . وهى تؤدى النتائج احسن بكثير من لغات العالم . وذلك ان الكتابة الشائعة الاستعمال هى كتابة غير مشكلة ، اى غير مقيدة بحركات ، وان القراءة تتجه لان تصبح فى اكثر الحالات قراءة صامتة .. وهكذا يتضح ان دعاة العلمية و « اللاتينية » يريدون ان يعقدوا المسألة ، ودعوتهم تقهقرية لانها لا تراعى رغبة الاقتصاد والسهولة فى الكتابة التى يتجه اليها العالم اليوم فى جميع وسائل الاتصال الجماهيرى .

وعند البحث الرصين تشهد للابجدية العربية بانها اصلح من سواها لكتابة جميع اللغات وسيما فى لغة الاعلام الحديث الذى يتجه الى الاقتصاد فى الحرف واللفظ والتعبير .

ولم يعد خافيا حتى على الاجانب المهتمين بشؤون الثقافة العربية ان قواعد اللغة من اسهل القواعد كتابة ولفظا ونحوا وصرفا .

اما كتابتها فتصوير مطابق للفظ الى ابعد الحدود ، فبدودها وحركاتها القصيرة حين يخوج الامر الى تصوير الحركات اكسباها ايجازا فى الكتابة واقتصادا فى وقت القراءة ، فما تكتبه بالحرف العربى اذا كتبته بالحرف اللاتينى يشغل مثل حيزه العربى ، ثم انت مضطر الى الابطاء فى القراءة فيها حتى يستوعب نظرك الحروف ، وليس فى الكتابة العربية حروف مركبة لاداء صوت فرد بل كل حرف يصور صوتا ولكل صوت حرف خاص ، وليس فيها حروف ترسم ولا تقرأ كما نعهد فى اللغات الاجنبية كالانجليزية والفرنسية (154).

وتظل اللغة العربية بعد ذلك اوفر عددا فى اصوات المخارج التى لا تلتبس ولا تتكرر بمجرد الضغط عليها ، فليس هناك مخرج صوتى واحد ناقص فى الحروف العربية ، وانما تعتمد هذه اللغة على تقسيم الحروف على حسب وقعها من اجهزة النطق ، ولا تحتاج الى تقسيمها باختلاف الضغط على المخرج الواحد ، كما يحدث فى الباء الخفيفة والباء الثقيلة التى يميزونها بثلاث نقط من تحتها بدلا من النقطة الواحدة ، او كما يحدث فى الفاء ذات النقطة الواحدة والفاء ذات

---

(151) سعيد الافغانى : « حاضر اللغة العربية » — ص : 150 .
(152) « دعاة العلمية » — ص : 20 .
(153) سعيد الافغانى : « حاضر اللغة العربية فى الشام » — ص : 196 .
(154) العقاد : « اللغة الشاعرة » — ص : 9 .

النقط الثلاث او كما يحدث فى الجيم المعطشة وغيرها.

ذلك ما نعنيه باللغة الاعلامية فى تقسيم حروفها ، فهى لغة انسانية ناطقة تستخدم جهاز النطق الحى احسن استخدام يؤدى الغرض المنشود فى اقتصاد شديد ، وليس هنا اداة صوتية ناقصة تحسن بها لابجدية العربية .

اما النحو فقد دخل عرض قواعده من التسهيل فى التاليف ما جعله ميسور الفهم خفيف العناء بحيث انحصر فى الكلمات المعربة اسماء وافعالا ، والخلاصات الاعرابية التى نجدها فى بعض الكتب الحديثة لا تبلغ الصفحة (155) .

والصرف لا صعوبة فى قواعده الاشتقاقية المطردة الحية فى اللهجات العامية كلها ، ولا سيما فى الاسماء ، فأوزان اسم الفاعل واسم المفعول والصفة واسم التفضيل واسماء الآلة هى فى العامية والفصحى (156).

وصفوة القول ، ان الصحافة والاذاعة واجهزة الاعلام الاخرى وما اليها ، كل ذلك عمل عمله فى تمكين الفصحى فى اسماع غير المتعلمين حتى الفوها ، وحتى ارتقت لغتهم من حيث لا يشعرون ، وحتى ضاقت الشقة جدا بين الفصحى والعامية ، وبين مستويات التعبير المختلفة ، وحتى يستمر الاعلام فى تحقيق هذا الغرض النبيل ، لتبقى اللغة العربية لغة حية تتسع للفكر والعلم والفن والتشريع ، ولذلك فيجب ان تكون اللغة العربية هى اللغة المشتركة فى الحياة والمجتمع وفى جميع وسائل الاعلام مقروءة ومرئية ومسموعة فى كل البلاد الناطقة بالعربية .

فاذا اضفت الى ما تقدم ، ما توفر فى الفصحى من جميع صفات اللغة المشتركة الشاملة فى كل العصور، تميزها من كل اللهجات المحلية بمستوى لغوى راق ، واستقرارها على قواعد لا تسمح لها بالتغير والتطور الا فى القليل من الاحيان وبعد اجيال من الاستعمال حتى اتخذها الناس فى جميع العصور مقياسا لحسن القول واجادة الكلام ، وانها على طول العصور كانت اللغة المشتركة الوحيدة التى تفاهم بها ابناء العرب والمتعلمون من غير العرب بين الصين والمحيط الاطلسى فى العالم القديم كله ، وزاد اليوم المتفاهمون بها بسبب انتشار التعليم ووسائل الاعلام ، وربما لم يبق على سطح الارض اليوم عربى لا يفهمها ولو كان اميا . وعلى ذلك فليس هناك ما يدعو الى استخدام الاذاعة والتلفاز للهجات المحلية فى برامجها ونشراتها، وقد سلمنا جميعا بأن احدا من الاميين فى البلاد العربية لا يفوته فهم شئ من الاخبار المذاعة بالفصحى فهما جيدا .

ان وسائل الاعلام جميعا مدرسة عملية فعالة سريعة الثمرات ، فعلينا ان نستخدمها طريقا حقيقيا لتحقيق وحدتنا اللغوية .

ويتسم هذا الطريق بسمتين ، اولاهما : تعميق الايمان بمستقبل الفصحى وضرورة تعميمها حتى تصبح قريبا لغة حياة الى جانب كونها لغة فكر وثقافة ، والثانية : التخطيط والتنفيذ لبلوغ هذا الهدف ، واستخدام الاعلام مجالا لتعميم هذه الفصحى فى جميع مجالات الحياة .

---

(155) سعيد الافغانى : « حاضر اللغة » ــ ص : 196 .

(156) ابراهيم انيس : « محاضرات عن مستقبل اللغة العربية » فى صدد كلامه على اللغة الانجليزية المشتركة التى استمدت معظم صفاتها عن لهجة الطبقة الارستقراطية ..